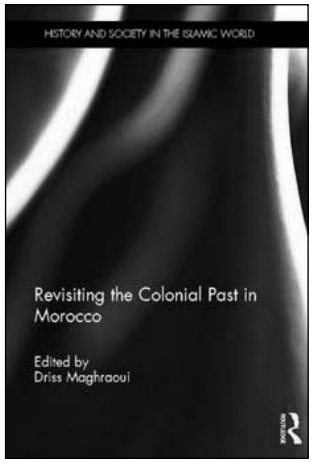

Driss Maghraoui (Edited by) ***Revisiting The Colonial Past in Morocco,*** **Routledge, London-New-York, 2013.**

إدريس المغراوي (إعداد للنشر) معاودة النظر في الماضي الاستعماري بالمغرب، روتليدج، لندن، نيويورك، 2013.

التاريخ استقصاء، ولا حد للاستقصاء في البحث التاريخي إلا من حيث تتوفر أو لا تتوفر الوثائق المثبتة للوقائع. فليس في التاريخ واقعة كبيرة وأخرى صغيرة وإنما يكون لبعض الوقائع صدى واسع فيعقلها الجمهور فتكثر عنها الشهادات ويتيسر التأريخ لها. ويكون لبعض الوقائع شاهد واحد أو ما يعد على رؤوس الأصابع من الشهود فلا يسجل ذلك إلا في الذكريات الشخصية ولا يدون من الذكريات الشخصية إلا القليل النادر. وعندما يعثر على شيء منها فإنها تنير ما جرى في الماضي بأنوار تحتية قد تبدي من الوقائع ما لا يبدو بالإنارة الفوقية. فإن صورة الحرب مثلا بأقلام ضباط أركان الحرب تختلف عن صورتها بأقلام الجنود المقاتلين على الجبهة الأمامية لو كتب لهم أن يدلوا بشهاداتهم. وكذلك الأمر بالنظر لفترة الاستعمار في المغرب المعاصر فإنها بالأقلام الرسمية سواء منها الأجنبية أو المغربية لا تفي تمام الوفاء بما جرى لو كان من الممكن الوقوف على شهادات كل الفرنسيين أو كل الإسبان الذين استغلوا البلاد طيلة أربع وأربعين سنة وبالأحرى على شهادات أبناء البلد الذين عانوا من الاحتلال أو استفادوا منه أو مروا حذاءه غير مبالين. وهذا الجانب المسكوت عنه على العموم المهمل من قبل المورخين لانعدام ما يوثق له هو ما تروم الأبحاث المدرجة في هذا الكتاب الذي نشره وقدم له بمقدمة مستوفية الأستاذ إدريس المغراوي من جامعة الأخوين إثارة الانتباه إليه والعناية به لكونه يستبطن من المعاني ما لا يقل أهمية عما يبدو من المحاور الكبرى من تاريخ الحماية، لا سيما وأن هذه الفترة من التاريخ يشترك فيها لزوما المستعمر بجر الميم والمستعمر بفتحها فلم تكن لا عنفا كلها ولا فائدة كلها ولا حداثة كلها

ولا نبذا للأعراف على الإطلاق. ولا يتجلى ذلك إلا بتحري جوانب دقيقة من السيرورة التاريخية اعتمادا على وثائق كانت مهملة أو منسية أوعلى تناول الوثائق المعروفة من زوايا أخرى بفضل ما يتيسر اليوم من أدوات التحليل الاجتماعي الجديد. ويحتوي الكتاب على أربع عشرة مقالة مبوبة في ثلاثة أبواب، عنوان الأول «الاستعمار والتصورات المجالية والعلوم» (ص. 19–111) فيه خمس مقالات، وعنوان الباب الثاني «الاستعمار والقومية، التاريخ الاجتماعي» (ص. 115– 204) وفيه خمس مقالات، وعنوان الثالث «الأبعاد الأدبية والفنية للاستعمار » (ص. 205 – 284) وفيه أربع مقالات، مما يوحي بتنوع المباحث وبدقة ما اعتمد فيها من أدوات التحليل المتحفظة من الأحكام الجزافية والقطعيات المرسلة.

من ذلك في الباب الأول بحث السيدة سوزن ميلر (Susan Miller) بعنوان «الملاح بدون أسوار أو مجالات اليهود في طنجة ما بين 1860 و1912» تبدي فيه أن العديد من العائلات اليهودية أخذ يومئذ يخرج من الحارة للسكنى في الأحياء الجديدة إلى جانب الأوربيين دون أن يتخلى أفرادها عن الشعور بالهوية اليهودية ولا عن المعابد التي ظلوا ينزلون إليها تمسكا بسلوك السلف وعلما أيضا بأن تلك المستجدات لم تحجب ما كان يخترق الطائفة من التناقضات الاقتصادية والاجتماعية الذاتية. وكتب الأستاذ عبد الأحد السبتي عن كيفية التعامل مع المجال الترابي جراء الاستعمار وكيف أن الضرورة العسكرية أفضت إلى اقتسام البلاد بين مغرب نافع وآخر غير نافع ثم إلى اقتسامه إداريا بين مناطق يحكمها ضباط الاحتلال وأخرى يتصرف فيها مراقبون مدنيون فترتب على ذلك قيام الجهات المقسمة إلى مقاطعات تختزل ما دونها من المجزءات الترابية، علما بأن هذا التصرف بالمجال مورس على البوادي وعلى الحواضر وعلى الأفراد إذ كان من الفلاحين من أدخل في ما سمي بالقطاع العصري للفلاحة ومنهم من ظل سجين أدوات الإنتاج الفلاحي التقليدي، وعلى الجماعات التي صارت في نهاية الحماية إدارية وقضائية وسياسية وكان على المغرب المستقل أن يأخذ ذلك بعين الاعتبار لإرساء القواعد الديمقراطية. وكتب بول ربينو (Paul Rabinow) عن وقع ما أسماه (Technocosmopolitanism) أو المفعول الكوني للتقنيات العصرية التي لم تكن صغيرة ولا كبيرة في المعمور وبخاصة في البلدان المستعمرة إلا جعلته رأسا على عقب فدمرت ما دمرت من الموروثات وأقامت محلها ما أقامت من أدوات البناء

على أسس المعاصرة والحداثة. وقد نال المغرب نصيبه من ذلك خلال الحماية علما بان السلطات الفرنسية وليوطي والمهندسين المعماريين الذين اشتغلوا بأمره راموا إدخال الأساليب الحديثة بما اعتبروه من باب التي هي أحسن مثلما فعلوا في الأحياء الخاصة بالمغاربة في الدار البيضاء الجديدة غير مبالين بما وراء ذلك من أساليب الميز بين الداخل والمدخول عليه. وحول قضية المجال الحضري في الدار البيضاء أيضا تدور مقالة الأستاذ إدريس المغراوي الذي انكب على قضية البغاء المهمشة طبعا إذ اعتنت بها الإدارة الاستعمارية الساهرة على أن لا تخفى عليها خافية من المجتمع المغربي فتصرفت بالبغاء بصفة كونه «حرفة» ونقلته إلى الأحياء الجديدة من المدينة في حارة أقيمت على قطعة من الأرض كان يملكها الفرنسي «بروسبِّير» (Prosper) الذي صار اسمه على لسان أهل البلد «بوسبير» فوقعت الحارة تحت مراقبة الشرطة والأطباء الاستعماريين اتقاء للفتنة وللأمراض المعدية والتناسلية. ويبدو البغاء من هذا البحث، مع كونه يجري من وراء الستار، قضية تختزل كل تناقضات الحداثة الاستعمارية فالباغية في تمام التعاسة والدناءة على ما كان يحيط بها من رعاية سلطات الحماية وجل البغايا التي طفت شهاداتهم لم يتعاطين «الحرفة» إلا من قهر ومن بؤس. وتأتي مقالة السيدة إلين أمستر (Ellen Amster) عن الطب والأطباء في الوسط الاستعماري لتبدي ما كان يكتنف تصرفاتهم من الشوائب والملابسات. ولا أدل على ذلك من مقتل الطبيب إميل موشان (Emile Mauchamp) في مراكش في مارس 1907 فهل قتل لأنه كان جاسوسا فرنسيا أو قتل لأن سكان مراكش توجسوا منه خيفة واعتقدوا أنه يريد بهم ضرا. ويبقى من المؤكد أن فرنسا اتخذت من مقتله ذريعة لاحتلال الدار البيضاء ووجدة وجعل المغرب في كماشة عسكرية من الشرق ومن الغرب.

وجاء في طليعة الباب الثاني مقالة السيد أوليڤيي بيرجي (Olivier Berger) عن المراقبين المدنيين الذين كانوا من أدوات التحديث الاستعماري في المغرب، ومنهم من تفانى في الخدمة وأحب البلاد صادقا وأفادها مخلصا. لكنهم لم يعترف لهم بذلك ولم يشكلوا هيئة قائمة الذات قادرة على فرض حرمتهم على الإدارة الفرنسية غب رجوعهم إلى وطنهم بعد استقلال المغرب. ويندرج في هذا الباب مقالة الأستاذ إدموند بورك الثالث (Edmund Burke III) عن المقاوم محمد نهموشة الذي قاوم الغزو الفرنسي أول الأمر ثم صار من قواد ما احتفظ به المعمر من أجهزة

الحكومة المغربية السابقة وطال به العمر حتى رأي البلاد تعود إلى كامل السيادة الوطنية فترمز سيرته الذاتية إلى ما جرى من التقلبات والانقلابات في البلاد قبل الحماية وأثناءها وبعد الاستقلال. وتثير قضية الاسترقاق بقلم الأستاذة غيثة عواد هي أيضا جانبا ظل مهمشا من التاريخ الاجتماعي المغربي. وتطرح الباحثة السؤال عن سبب اقتران مفهوم العبودية بالعنصر السوداني مذكرة بما يظل في الخيال المغربي وفي لغة العموم يوحي بذلك احتقارا حتى بعد أن أقفلت دور النخاسة وتحولت العبودية إلى علاقات اجتماعية جديدة لم يكن لسلطات ا لاستعمار فيها يد مباشرة. وفي سياق مواز كتب السيد رتشارد بِّينل (Richard Penell) عن دعاية الإنجليز أثناء الحرب العالمية الثانية من خلال مدينة طنجة علما بأن المغرب لم يكن تحت نفوذهم. لكن ضرورة التلبيس على الخصم الألماني وعلى أجهزته الاستعلامية من خلال الرأي العام المغربي جعلت المخابرات الإنجليزية تتوجه إليه ليس بخطاب «الأنا» مع «الآخر» بناء على طروحات المرحوم إدورد سعيد ولكن بخطاب صادر من الهواجس الإنجليزية الذاتية ومن تصورات عن المغرب والمغاربة نابعة من أحكام بعض القاطنين من الإنجليز في المغرب أمثال وليام كربي گرين (William Kirby Green) الذي كان والده سفيرا لدى السلطان المولى الحسن. وآخر ما يندرج في هذا الباب من القضايا المهمشة إلى حين غير بعيد قضية الجانب الأمازيغي من الهوية المغربية وذلک بقلم السيد جونتان ويرتزن (Jonathan Wyrtzen) الذي ذكر بأن القبائل الأمازيغية قاومت الغزو الاستعماري حتى استنفدت في ذلک كل وسائل المقاومة. ويشهد على ذلک الرصيد الهائل من القصائد والأغاني التي تشيد بما ترتب على ذلک من أسباب الافتخار والتفجع. بيد أن أخذ ذلک بعين الاعتبار ظل معلقا نوعا ما بين الخطاب الكولونيالي الذي كان يدعي أن الأمازيغ المغاربة انضموا إلي الحماية فكان جزاءهم ظهير 16 ماي 1930 لصيانة أعرافهم ومميزاتهم والخطاب القومي الذي كان يختزل مفهوم الأمة المغربية في الإسلام والعروبة حتى إذا استرجعت البلاد مسؤولياتها فاتضح أن هذه الأمة تركيبتها متشعبة متداخلة مثلها في ذلک مثل الأمم المتأصلة.

ونقف في الباب الثالث والأخير على الجوانب الأدبية والفنية في ظل الامتحان الاستعماري التي لم يهتم بها المؤرخون على العموم، فكتب السيد بريان

إدوردس (Brian Edwards) عن تصورات المريكان عن البلدان الشرقية عندما نزلوا بالمغرب، وذلك من خلال مذكرات الجنرال بَّاطن (Patton) ومن خلال شريط «كزابلانكا» الشهير. ولا يعنيه من ذلك ما ورد هنا وهناك من أوصاف المغرب على أنه مسرح حي لقصص ألف ليلة وليلة بل يعنيه ما ترتب على تلك الارتسامات الفورية وعلى القناعات المبيتة في الأوساط السياسية والثقافية الأمريكية من الاعتقاد بأن المغرب خاصة وإفريقيا الشمالية عامة يشكلان نوعا من «الفارويست» الجديد لا بد أن ينتشر فيه النفوذ الأمريكي. وكتب السيد سعيد كرايويد عن الإنتاج الأدبي المغربي في ظل الحماية وبعدها اعتمادا على كتاب «البَّاسي سَامْبْل» (Le passé simple) لإدريس الشرايبي وكتاب **دفنا الماضي** لعبد الكريم غلاب فالكتابان على اختلاف مشارب صاحبيهما وميولاتهما يصوران كلاهما لوقوف المغاربة من قضايا «التراث والهوية» و«الأصالة والمعاصرة» وبأي لغة يمكن معالجة تلك الجوانب الخطيرة الشأن في التأليف الأدبي الوطني. ويدلي الأستاذ إدريس المغراوي مرة أخرى بدله في هذا الباب استنباطا لمعاني «القصة العسكرية» إذ كتب بعض ضباط الاستعمار قصصا عن «تجربتهم» في المغرب وعن جنودهم المغاربة من «القوم» (بالقاف المعقدة) وهم المجندون طوعا أو كرها في جيوش الاحتلال من أبناء القبائل الأمازيغية فتأتي صورهم وأوصافهم في تلك المؤلفات مشوبة بكل ما يشوب العملية الاستعمارية من الشوائب فيبدو الجندي «القومي» بطلا مقداما من أبطال الأساطير كما يبدو وحشا ضاريا لا يمسك بزمام قيادته إلا الضابط الفرنسي الذي تتمثل فيه هو كذلك من حيث يشعر أو لا يشعر شهامة الضابط المسؤول أو خسة المعمر الجشع غير العفيف. وتتجلى هذه الازدواجية وهذه التقلبات في خطط الاستعمار وفي من تحمل مسؤولية التنفيذ من الأفراد في سيرة بروسبير ريكار (Prosper Ricard) التي تتبعها السيد جيمس مخيبر (James Mokhiber) فذكر بأن هذا الشخصية الذائعة الصيت إبان الحماية كان مجرد معلم في الابتدائي عمل في الجزائر المحتلة أول الأمر فاعتنى بناء على التقاليد الفرنسية بالتعليم الحرفي. ثم لما التحق بالمغرب تحت إشراف الجنرال ليوطي تحول ذلك إلى عناية بالفنون والصناعات التقليدية المغربية حتى صار فيها مرجعا يدير ويفتي وقطبا تولدت من تجربته وتعليماته سياسة استعمارية تتغنى بمحافظتها على التقاليد الفنية الأصيلة والجماليات المغربية.

فمن الواضح البين أن الحماية الأجنبية كان لها بالغ الوقع على مجرى تاريخ المغرب وعلى مجتمعه وعلى ثقافته، تصدت لذلك الأبحاث المدرجة في هذا المؤلف إما بالاعتماد على وثائق لم يسبق اعتمادها وإما على نظرات ومفاهيم مستوحاة من باقي العلوم الإنسانية. ولا سبيل إلى التقدم بالبحث التاريخي خارج هذين السبيلين. ولا يكشف البحث العلمي عن جانب مما كان منسيا أو ملتبسا إلا ليفضي إلى المزيد من الاستقصاء وتلك شهادة له بأنه بحث موفق سديد كشأن هذ المجوعة من المقالات الرصينة المتحرية.

إبراهيم بوطالب